يُدبِر عامٌ ويُقبِل عام

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠١٠/١/١م

"رُبَّ عُمُرٍ اتَّسَعَتْ آمَادُهُ وَقَلَّتْ أَمْدَادُهُ، وَرُبَّ عُمُرٍ قَلِيلَةٌ آمَادُهُ كَثِيرَةٌ أَمْدَادُهُ".

ثلاثةَ عشر عامًا في مكة بنى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم جيلاً ساد الأرض، فماذا نصنع نحن في ثلاثة عشر عامًا؟

وعشرة أعوام في المدينة بيّنَ فيها الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم كلَّ التشريع، ووسّع دائرة الدعوة، وقرع أبواب كِسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس... فماذا نصنع نحن في عشرة أعوام؟

وهاهو عمر بن عبد العزيز ولّي الخلافة أقلّ من سنتين، فغيّر وجه التاريخ، وحوّل الظُلم والظلمات إلى عدل وأنوار، فما سرّ التغيير في الوقت والأعوام تتوالى عامًا بعد عام؟!

يُدبِرُ عامٌ ويُقبِلُ عامٌ ونحن كالمتفرِّجين!!

لماذا يعطينا الله سبحانه وتعالى هذا الكنـــز الثمين الذي اسمه "الوقت" ولا نستثمره، ولا تظهر بركاته، ولا تظهر عطاياه ونتائجه..؟!

لابد للإنسان أن يبحث عن سرّ تلك البركة في الوقت.

وأختار لكم من كتاب الله تبارك وتعالى نصًّا من النصوص القصيرة التي تمتلئ بالمعاني، ويُقدّم القرآن الكريم لنا فيها خطابًا يتعلّق بالوقت وأسراره، ففي سورة الحشر آيتان، يقول الله تبارك وتعالى فيهما:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [الحشر: ١٨-١٩]

إنهما آيتان، لكنك حينما تُمعن النظر في المعاني التحليلية فيهما سوف تقتطف قطوفًا كثيرة.

فالخطاب يتوجّه إلينا معاشر الإيمان، فهو خطاب يعتني بأمّة الإسلام، ويعتني بمن آمن بالله ورسوله وصدّق بما جاء به، لأن الله سبحانه وتعالى صدّر هذا النص بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا}.

ومستويات الخطاب في القرآن متعددة، فحين يقول القرآن: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} فإنه يقدّم خطابًا يستفيد منه كل الناس، لكنه حينما يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا} فإنه يُخاطب من أجاب بقلبه وظاهره وأَقْبل على الله وأعلن انتماءه إلى أمّة الإسلام.

ولما كان تقصير أمّة الإسلام اليومَ في الوقت فإن خطابًا كهذا الخطاب مُهِمٌّ بالنسبة لنا، ففيه العناية والرعاية وفيه يُسلّمنا الله سبحانه وتعالى مفتاح النجاح في الوقت القصير، والعاقلُ هو الذي يفتح آذان قلبه وينتظر ما بعد هذا الخطاب من توجيه ربّاني يتعلّق بالوقت، فقد قال سبحانه وتعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ} فأفهَمَنا أن قوله تبارك وتعالى: {اتَّقُوا اللَّهَ} يتعلّق بالوقت، لأنه يتحدّث عن اليوم والغد والعلاقة بين اليوم والغد.

وربّما لاحظتم أنه تبارك وتعالى كرّر عبارة: {اتَّقُوا اللَّهَ} في هذا النص لكن بدلالتين:

فقال: {اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ}

ثم قال بعدها: {وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}

فكان الحديث عن التقوى في المرة الأولى متعلّقًا بالظرف الذي هو الوقت، وكان الحديث عن التقوى في النصّ الذي تلاه يتعلّق بالمظروف، أي بالذي يحويه هذا الوقت، فهو يحوي حركة وسلوكًا وعملاً، ولذلك قال سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} بعد أن قال مرّة ثانية: {وَاتَّقُوا اللَّهَ}.

فقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ}: أي: اتقوا الله في أوقاتكم، فإن أوقاتكم كنـــز ثمين مَنَحَكم إياه ربّكم، فالنَّفَس الذي يمرّ بك كنـــز ثمين، وحين تُحسن استثماره تقطف نتاجًا وعطاءً، وحينما تُهمِله ولا تُقدّر قيمته ولا تعرف مقداره فإنك تُضيّع ما سوف تُسأل عنه.

واليومَ في قنوات الإعلام يستعرضون ما الذي حصل في العام، فيقولون: حصل كذا.. وحصل كذا.. وحصل كذا.. ويا ليت كل واحد منا يسأل نفسه: ما الذي أنتجتُه في هذا العام؟

فإن كنت لا تقدر على أن تضبط ما أنتجته وما قدّمته وما حصّلته من المنافع والفوائد في العام الفائت، فابدأ من يومك هذا الذي هو اليوم الأول من العام المُقبِل.

وكما تحفظ على مكتبك مُفكرة تضبط فيها بعض ما تحتاج إليه، خذ مُفكرة أخرى واكتب فيها ربحك وخسارتك في هذا اليوم، لكن بالمنطق الإيمانيّ: فهل كان ربحك مجرّد طاعات في عبادات تتقرب بها إلى مولاك، أم أنك في هذا اليوم حرّكت مالك في سبيل الله؟ أم أنك علّمت مُتعلِّمًا أو تعلّمت من عالِم؟ أو أنك قدّمت لأمّتك عطاء حضاريًّا؟ أم أنك نقلت الهداية إلى قلبٍ كان في الزمن الفائت يفقدها؟

ما الذي فعلته في هذا اليوم؟

فإذا كان يومك قيلاً وقالاً واشتغالاً مجردًا بالدنيا... فأنت بالمنطق الدنيويّ قد تكون رابحًا، لكنك بمنطق الإيمان خاسر.

أتخجلون من هذا؟

أنعتني بتوثيق سلوكياتنا الدنيوية، وننظر إلى توثيق الربح المعنويّ على أنه قضية هامشية لا صلة لنا بها؟

ثم إن قوله تعالى: {وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ} أصلٌ من أصول شريعتنا، وبدلاً من أن نكون كالنعامة، لا تنظر إلا عند أقدامها، أو في الحفرة التي تحفرها وتضع فيها رأسها، فلنتحوّل إلى أمّة مُخطِّطة مُدبِّرة.

لماذا يُخطِّط أبناء صهيون منذ سنوات طويلة فيما يُعرف بحركتهم الصهيونية، ويعقِدون المؤتمرات المتتالية، ويُنفذّون ما يُخططونه..؟

ما هي خطّة تجمعات الإيمان؟ أين التدبير والتخطيط؟

وإذا كان أهل المعرفة قد تحدثوا عن إسقاط التدبير، فإنهم يتحدّثون عن ترك المنازعة القلبية للمُدبِّر سبحانه، أما التدبير الذي هو بمعنى التخطيط لما ينبغي أن تفعله فإنه أصلٌ من أصول ديننا.

فضع في مقدّمة مفكرتك التي أتحدّث عنها خطّة عامك، وحاول بعد ذلك أن تراقب المستوى والفرق:

هل أنتجت فوق ما دبّرت له وخطَّطت، أم أنك تُنظّم وتُخطّط من دون نتاج؟

هذه المفكرة تسمح لك باختبار نفسك، وتعطيك فرصة لتكون فيها صادقًا مع ذاتك.

وقد جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه الترمذي والحاكم، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا إلى حضرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:

(بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوْ الدَّجَّالَ فَإِنَّه شَرُّ مُنْتَظَر، أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ).

وهكذا يضعنا الحبيب المصطفى في مشهد سِبَاق، فقد تكون في هذا المشهد سابقًا في الوقت، وقد تكون مسبوقًا، فإذا كنت سابقًا في الوقت غَنِمت، وإذا كنت مسبوقًا فوّتَّ.

بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا: أي سابقوا بين سبعة:

١ – الفَقْر المُنْسي: فاليوم أنت تملك شيئًا من الدنيا، وتُوظّف ما تملكه من أجل منافعك الدينية والدنيوية، لكن انظر إلى الفقر الذي أنسى الجياع كلّ شيء إلا البحث عن لقمة الطعام.

فالفقر الذي تعوّذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم منه (كما تعوّذ من الكُفر) هو الفقر المُنسي الذي يُنسيك كل شيء، فلا تشتغلُ بأي مصلحة جماعية أو فردية إلا من أجل تحصيل الطعام والشراب.

وهكذا سار كثير من الحُكّام على هذا المنهج حتى لا تفكّر شعوبهم إلا بالطعام، فسرقوا الثروات وفعلوا الأفاعيل، لكن شعوبهم كانت في الفقر المُنسي، وحينما يكون الإنسان في الفقر المُنسي يكون كالشاة التي تبحث عن كلأ ترعاه وتطعمه، فهي تبحث عن شيء يدخل إلى جوفها ليس إلا.

الفقر المُنسي الذي أشار النبي صلى الله عليه وسلم إليه حقيقةٌ حاضرة نراها اليوم في أماكنَ كثيرةٍ في العالم، وانظروا إلى خارطة الكرة الأرضية وسترون فيها الفقر المُنسي.

فهل ننتظر أن يكون الفقر المُنسي حالنا؟ وعند ذلك لا ينفع السباق، وعند ذلك نُهزم، فاليوم نملك شيئًا نستطيع أن نوظّفه، فوظّف ما تملكه قبل أن يأتيك الفقر المُنسي.

٢- الغنى المُطغِي: فربما فاجَأَكَ الغنى حتى تَحَار: كيف تُبذّر أموالك؟ وهي حالة حاضرة أيضًا.

ونحن نعيش مفارقة عجيبة في هذا الزمان، يقول تعالى: {وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ} [الحج: ٤٥]

فهناك من لا يملؤون جيوبهم وحسب، إنما يملؤون الشاحنات من الأموال، ويبحثون عما يُسمى بـــ "غسيل الأموال" اليوم، في نفس الوقت الذي لا يوجد فيه ثمن لوقود يوضع في مدفأة في بيت فقير..

إنها مفارقة كبيرة..

فهناك من يتحدّث بالمليارات، ويتحدّث بالأرقام التي يَحار أين يضعها.. وهناك من يجلس إن وَجَد الطعام لا يجد الدفء..

إذًا: بينك وبين الغنى المُنسي وقت، فاغتنم هذا الوقت في السباق قبل أن تقع فيه، فقد تقع فيه، والنكبات التي تُصيب العالَم تتوالى.

وهاهم إخواننا في العراق، كانوا يعيشون في الأمس القريب حالة الرخاء - أسأل الله تبارك وتعالى لهم السلامة والتحرير، وأن يَصرف عنهم كيد المُحتَل - وعندما زرت تلك البلاد كنا نجد أن ثمن وقود المركبة أقل من ثمن الماء.

ويحصل هذا الغنى المُطغِي عندما يضع الإنسان قدمه في طريقٍ مادية لا يكون فيها مِن حوله أقران الخير، ويُساق فجأة إلى حالة يُحاط فيها بالمال.

وهناك شركات وهمية بدأت تتدفّق إلى بلادنا تعتمد تشكيلاً هرميًّا (والتي تسمى Quest net)، يأتي فيها المال للإنسان من غير عمل، وقد علمت أن الدول اليقظة كالإمارات (وهي من الدول القريبة إلينا) قد منعت أمثال هذه الشركات منعًا قانونيًّا، وأصدرت دائرة الفتوى في محافظتنا فتوى بتحريمها، ومِن آنٍ لآخر أسمع بعض العاطلين الذين ينتظرون أن يأتيهم المال، لأنه قام بالدلالة على مُنتَجٍ لا وظيفة له في الأولويات.

٣- المرض المُفسِد: فاليوم معك عقلك، ومعك لسانك، ومعك يدك، ومعك رِجلك... وكلَّ يوم نرى من يُصاب بالسكتات الدماغية والقلبية، ويُصاب بالآفات التي لا تُحصى...

فأنت سليم البدن وسليم العقل.. إذًا: أنت في اختبار، فانتبه إلى أنك بحمد الله لست في الفقر المُنسي، وأنك بحمد الله لست في الغنى المُطغي، وأنك بحمد الله لست في المرض المُفسِد الذي يُفسد كيانك البشري.

٤- الهرم المفنِّد: وهو أن يطول العُمر بك حتى تصير في أرذله، فتُصاب بالخرف، ويهزأ بك أولادك.

فإذا كنت تريد ألا تقع في هذه الحالة فالمعادلة يسيرة: (احْفَظِ اللَّهَ يحْفَظْكَ).

وقد سمعت صديقًا وأخًا قد رأى رجلاً كبيرَ القَدْر وقد تحوّل إلى هذه الحالة المزرية، فهو لا يستطيع أن يُنظّف فضلاته التي تخرج من بدنه، فقال: ما أكرم التراب الذي يستر عيبة الإنسان!

فالهرم المُفنِّد: أي حين يقع الإنسان في الخرف والهذيان ويقول ما لا يعي، فيُفنِّده الناس.

٥- الموت المجهِز: ففي كل يوم نرى حادثة يكون فيها شابٌّ في ريعان الشباب وقد أجهز الموت عليه.

٦- الدَّجَّال: ويسبق المسيحَ الدجّالَ الأكبر ثلاثون دجّالاً، ولا ندري نحن نعيش أيَّ رقم من أرقام الدجّالين الذين يسبقون ظهور المسيح الدجال، فهل نحن في الدجّال العشرين.. أم الدجّال الخامس والعشرين.. أم الدجّال التاسع والعشرين..؟

٧- السَّاعة: التي أخفى الله أمرها، فلا يَعرف أحدٌ متى تقوم.

وقوله: "**فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ**" أي: أشدّ الدواهي وأصعبها وأكثرها مرارة.

هذا هو السباق في الوقت الذي يجعل الإنسان مُعتنيًا بيومه، ومعتنيًا بعامه، ومعتنيًا بأنفاسه...

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ}

{وَاتَّقُوا اللَّهَ}: أي في اختيار أعمالكم وأولوياتها في الوقت، وفي اختيار المظروف داخل هذا الظرف.

وعندما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا . . . إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} قال: (**تَصَدَّقَ رَجُلٌ، مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّه، مِنْ صَاعِ تَمْرِه، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**).

والذي يقرأ هذا الخطاب النبوي بعد أن تلا في خطبته هذه الآية صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، يجد أنه صلى الله عليه وسلم يقول: افعل أي شيء تستطيعه قبل أن يفوت الأوان.

فلا تحتقر معروفًا تفعله مهما كان صغيرًا، واغتنم الوقت فإنه يمرّ، وكن في السباق حاضر القلب لا غافلاً.

{إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}: فمعرفة العبد باطّلاع ربّه عليه حافزٌ له على أن يكون في أعماله في أحسنها، فهو يُسقِط اعتبار نظر الخَلق ويُغيّبه في نظر الحقّ، ويكون مُراقِبًا لربّه في أعماله، فتكون في أحسن حالاتها.

فلا تعتنِ كثيرًا بالذي يموت، وراقبْ نظر الحيّ الذي لا يموت.

وهذه نصيحة قدّمها القرآن لنا في الوقت، لكنه بعد ذلك ذكّرنا بمن سمعوا النصيحة فأهملوها فقال سبحانه: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ} فإذا لم تفهم هذه النصيحة و لم تعتنِ بها و لم تُطبّقها على أرض الواقع.. فسيكون حالك حال الأمم التي سبقت، وستكون من هذا الصنف الذين نسوا الله، فاشتغلت القلوب، وإذا اشتغلت القلوب بالمخلوقات يحصل النسيان لحضرة مليكها.

وإذا كان القلب مملوءًا بالمخلوقات فكيف تتذكّر الله؟

{وَلَا تَكُونُوا}: فإذا كنتم لا تأخذون هذه النصيحة على محمل الجِدّ، فافهموا أنكم في هذا الحال، أي:

{كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ}: اشتغلت قلوبهم بالمخلوقات فنسيت خالقها.

{فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ}: أي: أنساهم مصالح أنفسهم.

قالوا: إن كانت الدنيا ذهبًا فانيًا، والآخرة خَزَفًا باقيًا، فالآخرة خيرٌ من الدنيا.

فكيف والأمر معكوس، والدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة.

فهل مصالحُ النفس على الحقيقة أن تدّخر عند الله لك منـــزلة في الآخرة، أم أن تتمتع متاعًا قليلاً زائلاً؟

هذه هي مصلحة النفس في ميزان الحقيقة.

إذًا: فأنساهم أنفسهم فاشتغلوا بالمتاع الزائل، فلما رحلوا عن هذه الدنيا فاجَأَهم أنهم في اليوم الآخر في حالة إفلاس.

ولكن من هو هذا الصنف؟

{أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}: الذين يقعون في المحظورات الشرعية.

فإياك أن تضع قدمك في محظور شرعيّ..

وإياك أن تمتد يدك إلى محظور شرعيّ..

وإياك أن تُدخل إلى جوفك لقمةً من الحرام..

أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأوامر كثيرة ونحن نختار منها في النوافل والمندوبات، أما ما نهانا عنه فإن النفس لا خيار لها فيه: (مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ).

وهكذا اختصر القرآن الكريم الوصف بكلمة واحدة فقال: {أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}.

لأن الذنْب يوقِع على القلب نُكتة سوداء: {كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: ١٤]

والذنوب تقفل القلوب: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤]

فكَسِّروا أقفال القلوب..

علينا جميعًا أن نتوب إلى الله توبة نصوحًا..

وعلينا أن نبدأ صفحة بيضاء بعد أن نتطهّر من نجاسات الغفلات والهفوات والزلات..

هذه نصيحة قرآنية في الوقت، ونحن في أول وقتٍ من أوقات السنة الشمسية، ونحن في الأمة الإسلامية نعتبر السنة القمرية والشمسية والقرآن الكريم قال: {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا} [الكهف: ٢٥]

فبالحساب الشمسيّ ثلاثمائة سنة، وبالحساب القمري ازدادوا تسعًا.

وهكذا يتنبّه المؤمن بعد هذا الخطاب ويَعي أن الساعة التي تمرّ به من غير استثمار خسارةٌ كبيرة، وسِرّ تضييعها وصفُ الفسق ونسيان الله، فنسي نفسه فأنساه مصالح نفسه.

رُدّنا اللهم إلى دينك رَدًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.